المخلفون الثلاثة

obeikandl.com

obeikandl.com

المخلفون الثلاثة -١

عن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان قائد والده حين عمى ، قال :

سمعت كعب بن مالك – رضى الله عنه – يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى غزوة تبوك ، قال كعب :

لم أتخلف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها ، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك أني لم كن قط أقوى ، ولا أيسر مني حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى حرّ شديد ، واستقبل عدداً كثيراً فجلىّ للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ ، قال كعب فقلّ رجل يريد أن يغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به مالم ينزل فيه وحى من الله ..

. . . . . .

هذه واحدة من أهم القصص التى وردت فى الحديث النبوى الشريف التى تكشف جانبا مهما من تاريخ الدعوة الإسلامية ، ومسيرتها فى تأسيس دولة الإسلام والحفاظ عليها ، وتربية المسلمين وفق مبادىء المدرسة المحمدية العظيمة ، وكيفية الطاعة والالتزام فى مواجهة الخطر والمواقف الصعبة .

إن قصة "**غـــزوة تبـــوك**" والثلاثة الذين تخلفوا عنها ، تقدم لنا النفس البشرية فى حالات مدّها وجزرها ، فى وقت طاعتها وانطلاقها وساعة نكوصها وترددها، وتكشف عن الطبيعة البشرية أو الفطرة السوّية حين تفىء إلى الحق ، وتعود إلى الصواب، وتدرك أن الخطأ يجب ألا يستمر وألا يتمادى فيه المخطىء ..لأن الحق أحق أن يتبع .

وهذه القصة يكتمل فيها البناء الفنى القصصى إذا شئنا لغة النقد الأدبى الحديث ففيها الأحداث والشخصيات والمكان والزمان ، وفيها الحوار والتشويق وغيرها من عناصر تقديم العمل الفنى القصصى فى صورة مكتملة وشائقة ، وتحفزنا إلى متابعة ما

يجرى من أحداث القصة ووقائعها ....ومع أنها قصة طويلة نسبيا إلا إنها تأخذنا من منطقة إلى أخرى تتصاعد فيها الوقائع و الأحداث .

و التمهيد الذى تبدأ به القصة يقدمه عبد الله بن كعب بن مالك ، الذى كان مرافقا لأبيه و قائداً له حين عمى . ونعلم فى هذا التمهيد أن كعب بن مالك ، هو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، و أنه يروى القصة من منظوره و بلسانه ، وفيها يحكى ما جرى دون زيادة أو نقصان ، ويعبّر عن مشاعره و أحاسيسه تجاه أحداث القصة وشخصيا تها بصدق ودقة ، دون أن يحاول التغطية على بعض الأحداث أو التعتيم عليها .. وتلك آية المسلم الصادق الذى يكون كما وصفه الرسول – صلى الله عليه وسلم – " إذا حدث صدق " فالرجل ، وهو صحابى جليل من كبار الصحابة ، كان صادقاً فى حديثه غاية الصَدّق ، إذا صحّ التعبير ...فحكى وروى وقصّ ما وقع بمنتهى الصدق و الدقة .

ونكشف فى تمهيد القصة أن كعباً واحد من الذين شهدوا الغزوات كلها باستثناء غزوة بدر ، وغزوة تبوك ..فى غزوة بدر لم يعاتب الرسول – صلى الله عليه وسلم – أحداً ممن تخلفوا عنها ، فقد خرج مع المسلمين يريدون إبل قريش أو تجارة قريش القادمة فى قافلة أبى سفيان من الشام إلى مكة ، وكان القصد الاستيلاء على القافلة دون قتال ، ولكن القتال حدث ، و انهزمت قريش ، و انتصر المسلمون ...وكأن التخلف عن هذه المعركة لم يكن مقصوداً لذاته ، لأن الأمر كما فهمه الصحابة آنئذ كان أمر القافلة ، ولم يكن أمر قتال قريش ...ولعل هذا ما جعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يعاتب الذين تخلفوا عن بدر ..

اختلف الأمر فى غزوة تبوك ، فقد دخل المسلمون معارك عديدة قبلها ، وعرفوا نظام القتال و الاستعداد له ، ومن ثمّ ، فإن التخلف عن الغزو لا يعدّ أمراً هينا أو مقبولاً ، خاصة وأن سورة التوبة تحدثت كثيراً عن المنافقين ، أى الذين يظهرون الإسلام و يبطنون الكفر ، وتعللّهم بأسباب واهية للقعود عن القتال ..ومن هنا ، فإن تخلّف بعض الصحابة ومنهم كعب بن مالك عن الخروج إلى تبوك يمثل خللاً يجب تصحيحه .

يروى كعب أنه حضر بيعة العقبة مع الأنصار ، وهى البيعة التى تعاهد فيها الأنصار مع النبى – صلى الله عليه وسلم – على الإسلام و نصرته – صلى الله عليه وسلم – وكان كعب يتمنى لو حضر بدراً التى لم يشارك فيها ، ولم يشهد بيعة العقبة ...ثم يوضح أن التحضير لغزوة تبوك كان على قدم وساق، وكان عدد المقاتلين كبيرا ، بحيث أن من يتخلف لا يتنبه إليه الصحابة ، ولكن هل نسى الصحابة كعباً وزميليه الذين تخلفوا عن تبوك ؟

المخلفون الثلاثة -٢

تحدث عبد اللّه بن كعب بن مالك ، عن تخلّف والده عن غزوة تبوك ، التى أعدّ لها رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم ، فى وقت شديد الحر ، وتابع عبد اللّه يقول :

" وغزا رسول اللّه – صلى اللّه صلى اللّه عليه وسلم – تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهز رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – والمؤمنون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معه – صلى اللّه عليه وسلم – فأرجع ولم أقض شيئاً ، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى ، حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – يحزننى أن لا أرى لى أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر اللّه تعالى من الضعفاء ولم يذكرنى رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – حتى بلغ تبوك ، وهو جالس فى القوم بتبوك :

" **ما فعل كعب بن مالك ؟** " ...

....

يواصل عبد اللّه بن كعب حديثه عن تخلف أبيه عن الخروج مع المسلمين للجهاد فى غزوة تبوك . لقد عبرّ فى تمهيده عن رغبة أبيه فى حضور غزوة بدر ؛ التى لم يتح له أن يشارك فيها ، مع أنه شارك فى بيعة العقبة ، وكان يتمنى أن يتبادل الموقفان . فيحضر بدرا ولا يحضر العقبة ...كما يشير عبد اللّه إلى أن أباه كان فى مرحلة الاستعداد لغزوة تبوك أقوى من أى وقت مضى، ولا أيسر منه إلاّ فى هذه المرحلة .

ويخبرنا عبد الله كعب بن مالك ، على لسان أبيه عن أسلوب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى الاستعداد للغزو و طريقته فى التحضير له . فيقول " **ولم يكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يريد غزوة إلا ورى بغيرها** " أى إنه كان – صلى الله عليه وسلم – يخفى مقصده و يظهر غيره ، فقد كان كلامه يحتمل غرضين ، وهذا ما يسمى فى المصطلح العسكرى المعاصر بالتمويه ؛ كى لا يستفيد العدو من التصريحات والتحركات التى يقوم بها المسلمون .

ثم إن الغزوة قد اكتمل الاستعداد لها : تجميع المجاهدين ، ومعرفة الوجهة التى يريدونها و العدد كثير لا يضمهم " **كتاب حافظ** " أو ديوان ، لدرجة أن ندر أن يكون هناك رجل تغيّب عن الركب المقاتل ، مالم ينزل فيه وحى من الله .

وتصف القصة وقت الخروج إلى الغزوة ، وكما عرفنا من قبل فكان وقت قيظ وحرارة شديدة ، وهذا وقت " **طابت فيه الثمار و الظلال** " ، إنه وقت يغرى بالركون إلى الظل الظليل حيث لا حرّ ولا لهيب ولا قيظ ...وعندما تنضج الثمار و تطيب فأكلها فى الظل مغرٍ وشهىّ . إنها النفس البشرية التى تؤثر الليونة والطراوة ، على الخشونة والجفاف ، وهما أبرز معالم الجهاد و المواجهة ...وقد عبر كعب بن مالك عن ذلك بقوله "وأنا إليها أصعر" يقصد الظلال و الثمار، أى إنه أكثر ميلاً إلى الدعة والاستمتاع بالراحة والظلال ، ومن منا لا يفضل الراحة على العمل ، و الاسترخاء على النشاط. هى طبيعة النفس البشرية حين يغريها الواقع المادى بالتنازل عن الجهاد و الكفاح لحساب الكسل و الخمول .

وترسم القصة على لسان كعب بن مالك كما يرويها ابنه عبد الله ، ملامح دقيقة تعتمل فى نفس الصحابى الجليل ، تكشف عن تردده و عدم حزمه للأمور فى الخروج إلى تبوك ، كما تقدم مشهداً قصصياً بارعاً ، لرجل يريد أن يكون فى زمرة

المجاهدين ولكن الرغبة فى الراحة و الخلود إلى الظل تجذبه بعيداً عن ميدان المعركة .. من ينتصر على من ؟

النفس المجاهدة أم النفس الخاملة ؟ النفس القوية أم النفس الضعيفة ؟ العزيمة الصادقة أم الإرادة المهلهلة ؟ هذا كله تقدمه القصة فى وصف بديع يوضح أعماق شخصية صادقة مع نفسها ، و تعترف بالحقيقة دون زيادة أو نقصان ، لأنها تهدف من وراء ذلك إلى تقديم الدرس الذى تلقته وكان قاسيا و مؤلماً فى مسيرة الإسلام و المسلمين ، وليس مسيرة كعب وحده ..

لقد تجهز رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و استعد المسلمون للخروج ، بل خرجوا إلى تبوك ، وكعب فى تردده . يقول "**وطفقت أعدو لكى أجّهز معه – صلى الله عليه وسلم – فأرجع ولم أقض شيئاً . وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ..فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجدّ** ...." ....أى إن كعبا رضى الله عنه ، كان يسّوف ويؤجل ..يستعد كى يتجهّز ثم يترك ذلك لوقت لاحق ..وكان المسلمون الأوائل حين يخرجون للجهاد ، يقوم كل فرد بتجهيز نفسه حسب مقدرته ، فيعد فرسه أو راحلته وزاده أو طعامه ، فضلاً عن سلاحه و كنانته ، ويرتب أمور بيته و أهله ، وماله وما عليه من ديون و التزامات ... وغير ذلك ...ولكن كعبا تباطأ حتى تفارط الغزو ، أى اقترب و أسرع و فارق المجاهدون المدينة فحاول الخروج ، ولكنه لم يجد من يخرج معه ، ولم يجد فى المدينة إلاّ المرضى و أصحاب الأعذار " ورجلاً مغموصاً عليه فى النفاق"، أى مطعوناً فى دينه، ..وبقى كعب فى المدينة ...

وفى تبوك ، ذكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كعبا ، وقال :

" **ما فعل كعب بن مالك ؟** " ...وكانت إجابة ...وكان حوار..

المخلفون الثلاثة -٣

تساءل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو فى تبوك عن كعب بن مالك ..

"**فقال رجل من بنى سلمه : يا رسول الله ، حبسته بُرْ داه والنظر فى عطفيه**" . فقال له معاذ بن جبل – رضى الله عنه : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "**كن أبا خيثمة**" فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى الذى تصدّق بصاع التمر حين لمزه المنافقون .

قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد توجه قافلاً من تبوك حضرنى بثّى، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً .

وأصبح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك ، جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعاً و ثمانين رجلاً ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت ، فلما سلّمت تبسَّم تبسُّم المغضب ثم قال : "**تعال**" فجئت أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ " .

. . . . . .

لا ريب أن تساؤل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يؤكد أن كعباً له منزلة قويّة فى صفوف المسلمين ، وأن غيابه عن الغزو ، ليس أمراً عادياً ، فالرجل منذ بيعة العقبة وهو يخرج فى الغزوات ، لم يتخلف إلا فى واحدة فقط ، هى غزوة بدر ، أول الغزوات . وكان يودّ لو شارك فيها ولم يحضر بيعة العقبة ، ليقدم ماله و دمه فداء للإسلام و رسوله –صلى الله عليه وسلم . إن كعبا أنصاريّ له جهده و مكانته بين الصحابة ، و غيابه لابد أن يستشعره الجميع ، وفى مقدمتهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولذا سأل عنه قائلاً :

"**ما فعل كعب بن مالك ؟**" وكان لابد من إجابة ، و الإجابة تبرع بها رجل من بنى سلمه قائلاً :

يا رسول اللّه حبسه بُرْداه ، و النظّر فى عطفيه ! " ومعنى حبسه برداه ، أى منعه من الخروج رداؤه . أما النظر فى عطفيه، فتعنى النظر فى جانبيه ، والعبارة كناية عن العجب و الكبر !

إذا الإجابة تسىء إلى كعب بن مالك رضى اللّه عنه ، وتقلل من إيمانه وإخلاصه، وكان لابد لمعاذ بن جبل رضى اللّه عنه ، أن يتصدى لهذه الإساءة ، و يقول للرجل: بئس ما قلت ، ثم يتجه بالحديث إلى رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – قائلاً : واللّه يا رسول اللّه ، ما علمنا عليه إلا خيراً ..وهنا تتبدى لنا أخلاق الصحابة رضوان اللّه عليهم ، فى ردّ غيبة صاحبهم ، والتصدى لمقولة السوء ، و الردّ عليها .. وهو ما جعل الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – يسكت ولا يعلق ، وإن كان تعليقه فيما رآه عبر السراب، حيث رأى رجلاً مبيضاً أى يلبس البياض ، يزول به السراب، أى يظهر من بعيد داخل السراب ، وقت اشتداد الحرّ فيقول له الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – " كن أبا خيثمة " ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون ، أى طعنوا فيه ! ترى هل نفهم من ذلك أن النبى –صلى اللّه عليه وسلم – لم يعلق مباشرة على قول الرجل الذى طعن فى كعب ، بعد أن رأى أبا خيثمة الذى تعرّض لموقف مشابه من الطعن و اللمز ؟ هذا ما أميل إليه ، لأن سياق القصة فيما بعد سيشير إلى المخلّفين و كيفية التعامل معهم ، وخاصة جموعهم باستثناء كعب و صاحبيه .

شخصية المسلم الأوّاب الذى يستشعر أنه أخطأ ، و يجب أن يعدل عن خطئه ويكفّر عنه ، وهو ما عبر عنه كعب حين علم أن الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – قد توجه قافلاً من تبوك ، أى رجع من تبوك ، يقول كعب : حضرنى بثى ، أى حزنى

الشديد ، فطفقت أتذكر الكذب ، أى أخذ يفكر فى الكذب سبيلاً إلى تسويغ موقفه ، ولكنه لا يقبل بالكذب شأنه شأن أى مسلم صادق الإيمان صحيح الإسلام ، وراح يفكر كيف يتفادى سخط الرسول – صلى الله عليه وسلم – غداً ..أى عند لقائه .

كعب بن مالك ، يستشير كل صاحب رأى من أهله ..كيف يجيب الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم يجد مفرّاً من قول الصدق ، و تأهب للّقاء . وبعد وصول الرسول – صلى الله عليه وسلم – وذهابه إلى المسجد ليركع ركعتين وفقا لمنهجه حين يعود من السفر ؛ جلس للناس ، وجاء المخلفون يعتذرون إليه ، و يحلفون له ، وكانوا بضعاً و ثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم – أى أسبابهم المعلنة و بايعهم ، و استغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى ، وفقا للمنهج الإسلامى فى التعامل مع الناس : لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر.

ثم جاءه كعب وسلم ، فتبسم الرسول – صلى الله عليه وسلم – تبسمّ المغضب، ثم قال له : " **تعال**" ، وجلس كعب بين يديد فقال له :

" **ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟** "

أى ما الذى جعلك تتخلف عن الغزو ، ألم تكن قد اشتريت الراحلة أو الناقة التى تركب عليها إلى الميدان ؟ وكأنه – صلى الله عليه وسلم – كان يعلم بعزم كعب على الخروج ؛ ولكن عارضاً مهّماً هو الذى منعه ! ترى ماذا كانت إجابة كعب على هذا السؤال ؟

المخلفون الثلاثة -٤

حين جلس كعب بن مالك بين يدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسأله عن سبب تخلفه وقد اشترى راحلته و استعد للخروج إلى تبوك ، قال كعب :

"قلت يا رسول الله ، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر. لقد أعطيت جدلاً ، ولكننى و الله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ؛ ليوشكن الله يسخطك علىّ ، وإن حدثتك اليوم حديث صدق تجد على فيه؛ إنى لأرجو فيه عقبى الله عزوجل ، و الله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

قال : فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"**أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك**"

وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ، فقالوا لى : و الله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت فى ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم – بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان فيك ذنبك استغفار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لك ".

....

تظل النفس البشرية بريئة طاهرة حتى تلوثها الدنيا بمغرياتها الرخيصة ، والمسلم الحقيقى يسعى دائماً إلى الحفاظ على براءته و طهارته ، وهو ما نراه فى إصرار كعب بن مالك – رضى الله عنه - على الاعتراف الصادق بحقيقة ما جرى حين تخلف عن غزوة تبوك ؛ بعد أن اشترى الراحلة ، وكان من المفترض أن يخرج مع المسلمين إلى تبوك ، ولكنه آثر الظل و الثمر ، وقعد مع القاعدين ، وحين رجع الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد تحركت نفسه لتصحح الخطأ، ويتطّهر منه و يبرأ.

سوف نرى صراعاً داخلياً تغذيه عناصر متعارضة من أجل النجاة والمغفرة ، وتفادى غضب الرسول – صلى الله عليه وسلم - وما أسهل الكذب ليكون ذريعة

الإفلات والبعد عن السخط ، وما أقسى الصدق الذى يكشف حقيقة التخلف والقعود ؛ عن الجهاد والاسترخاء فى موسم تطيب فيه الثمار و الظلال .

ويشرح كعب المسألة بطريقة منطقية بسيطة "يا رسول اللّه : إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً، ولكننى و اللّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن اللّه يسخطك على ، وإن حدثتك اليوم حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عقبى اللّه عزوّجل .

و اللّه ما كان لى من عذر . و اللّه ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك " .

هكذا يهدى الإيمان صاحبه إلى الحق و الصدق . كعب يعترف أنه يستطيع أن ينجو من السخط بعذر ، كما يعترف أنه يملك القدرة على الإقناع بحجته " لقد أعطيت جدلاً " ولكن كعبا يوقن أنه لو نجا بالكذب ، فإن من يعلم السرائر قادر على أن يسخط النبى – صلى اللّه عليه وسلم – على كعب . أما الحل السليم فهو الصدق حتى لو جلب غضب النبى على كعب " وإن حدثتك اليوم حديث صدق تجد على فيه" ويقصد بتجد على فيه أى تغضب على و تسخط ..و يعلل لجوءه إلى الصدق بأنه يرجو عقبى اللّه عزوجل أى التوبة ورضا النبى – صلى اللّه عليه وسلم – عنه ..

لقد اعترف كعب أمام النبى – صلى اللّه عليه وسلم – بأنه ليس لديه عذر لتخلفه عن الغزو ، ولا كان أقوى ولا أيسر منه فى وقت التخلف ، وهذا الاعتراف جعل النبى – صلى اللّه عليه وسلم – يصدقه ، و يأمره بالقيام حتى يقضى اللّه فيه ، أى ينزل فيه الحكم الإلهى من خلال الوحى ...وسوف نلاحظ أن الصراع الداخلى يستمر لدى كعب بعد هذا الاعتراف فقد تبعه رجال من بنى سلمه يحرضونه على الكذب مثلما فعل مخلفون آخرون من المنافقين ، ويقولون له إن استغفار رسول اللّه لك كان يكفيك ، وظلوا من ورائه يلومونه ويؤنبونه حتى أراد الرجوع ، إلى رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم فيكذب نفسه !

بيد أن كعبا خرج من هذا الصراع حين سألهم : هل لقى هذا معى من أحد ؟ أى هل هنالك من هو مثلى فى هذه المحنة ؟ فقالوا له : نعم . لقيه معك رجلان ، قالا مثل ما قلت أى اعترفا بالتقصير فى عدم الخروج إلى الغزو ، ولم يذكر أسباباً منعتهما منه . وقيل لهما ما قيل لك .

أى الانتظار حتى ينزل فيهما حكم إلهى عن طريق الوحى . وسأل كعب عن اسميهما .

فقالوا : مرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهداً بدراً ، فيهما أسوة . وحينئذ مضى كعب بعد أن عرف أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – نهى عن الكلام مع الثلاثة المخلفين .

يقول كعب : " فاجتنبنا الناس ، و تغيّروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض ؛ التى أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا و قعدا فى بيوتهما يبكيان " .

وتتوالى أحداث القصة لتشوقنا إلى معرفة ما جرى للصحابة الثلاثة الذين شهد لهم كرام الصحابة بما قدموه من جهاد ومن أسوة ...ولكن المقاطعة كانت عذاباً ، فقد تغير الناس عليهم حتى تنكرت لهم أنفسهم و صارت الأرض غير الأرض وجلس مرارة و هلال يبكيان فى بيتهما ، وظل ذلك على مدى خمسين ليلة ...وياله من مدى طويل أن يجد المرء نفسه لا يتكلم مع أحد ولا يكلّمه أحد قرابة شهرين .. ومع ذلك فقد كان لكعب موقف آخر فى ظل المقاطعة !

المخلفون الثلاثة – ٥

اجتنب المسلمون الثلاثة المخلفين ، وجلس مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فى داريهما يبكيان ، أما كعب بن مالك فكان له شأن آخر ، يقول عنه كما يروى عبد الله ابنه :

" وأما أنا فكنت أشبّ القوم و أجلدهم ، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد وآنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا ؟

ثم أصلى قريباً منه ، وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى ، نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوّرت جداراً لحائط أبى قتادة وهو ابن عمى و أحب الناس إلىّ – فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ السلام على

فقلت له :يا أبا قتادة: أنشدك بالله هل تعلمنى أحب ورسوله-صلى الله عليه وسلم ، فسكت، فعدت فناشدته ، **فقال** : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى و توليت حتى تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ " .

....

كانت مقاطعة المخلفين الثلاثة من جانب المسلمين ، فضلا عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أمراً شاقاً و قاسياً عليهم . وهو أمر لم يتحمله اثنان منهم فجلسا فى بيتهما يبكيان وهما مرارة بن الربيع و هلال بن أمية . أما كعب بن مالك ، وكان أشب القوم وأجلدهم ، أى أصغرهم سنا و أقواهم جسماً ، فلم يقعد فى البيت ، ولم يبك بين جدران أربعة ولكن أشواقه للتوبة ، ورضا الله ورسوله ، دفعته

إلى الحركة فى كل اتجاه ليتحّسس مصيره ومصير صاحبيه ، وكان يبحث عن هذا المصير فى وجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى لا يكلمه ، فكان كعب يخرج من البيت و يذهب إلى المسجد ويشهد الصلاة مع المسلمين، ويطوف فى الأسواق فلا يكلمه أحد، فيأتى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فيسلم عليه، ولكنه كان لا يجد صدى فيسأل نفسه: هلى حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا ؟

أى إن كعبا كان يتمنى أن يحرك شفتيه – مجرد تحريك – لعل قلبه يطمئن إلى أن المقاطعة فى طريقها إلى الزوال ...

ومن المحاولات التى كان يبذلها كعب لعله يجد منفذا إلى قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه كان يصلى قريباً من الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويسارقه النظر ، أى ينظر إليه من طرف خفىّ أو فى خفية . فإذا أقبل على صلاته نظر إليه، وإذا التفت نحوه أعرض عنه ، وكأن الطرفين يشتاق كل منهما إلى الآخر ، ولكن القضية التى تتعلق بالتخلف عن فريضة مهمة مثل الجهاد ، تفصل بينهما ، وتمنع الالتقاء حتى ينزل الوحى بحكم الله فى قضية التخلف و المخلفين ، وكان كعب حين ييأس من نظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إليه ، يتوجه إلى الصحابة ، و أقاربه منهم ، كما فعل حين تسوّر الجدار فى حائط أبى قتادة الصحابى الجليل ، وهو ابن عم كعب وأحب الناس إليه فألقى عليه السلام ولكن أبا قتادة لم يردّ. فسأله مناشداً أن يعلمه أحب الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم ؟

ولكن أبا قتادة يسكت ، فيكرر المناشدة ، ولكنه يسكت أيضا ، فيكررها ثالثة فيقول له الله ورسوله أعلم ..

وحينئذ تفيض عينا كعب بالدمع و يتولى راجعاً، وفى طريقه يجد فلاحاً أو نبطياً من نبط الشام ممن يأتى إلى المدينة بطعام يبيعه، وإذا بهذا الفلاح أو النبطى.

يقول : من يدلّ على كعب بن مالك ؟ أى يريد أن يتعرف على كعب لأمر مهم ..فماذا كان هذا الأمر ؟

لقد تعرف إليه النبطى ، ودفع إليه كتاباً من ملك غسان جبلة بن الأيهم ، وكان كعب يجيد القراءة و الكتابة ، فقرأ الكتاب ، الذى جاء فيه :

" **فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللّه بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك** " .

فقال كعب حين قرأها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها .

لقد كانت هذه الرسالة عقدة جديدة من عقد القصة تعقد الأحداث ، وتزيد من التوتر و الصراع داخل الشخصية الأساسية فى القصة ، وهى شخصية كعب بن مالك ، فبعد أن تجاوز الصراع الداخلى بين قول الصدق و الكذب على رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – فى شأن سبب تخلفه ، وبعد أن انتقل إلى صراع آخر فى مواجهة المقاطعة إذا بعنصر جديد يأتى فى شأن سبب تخلفه ، وبعد أن انتقل إلى صراع آخر فى مواجهة المقاطعة ، إذا بعنصر جديد يأتى من الخارج من جهة "**جبلة بن الأيهم**" ملك غسّان يطلب منه أن يلحق به ليعيش معززاً مكرماً ، ويترك الإسلام بعد أن جفاه صاحبه (**أى محمد – صلى اللّه عليه وسلم**) ، وصار يعيش فى دار هوان و مضيعة ...بيد أن كعبا حسم موقفه من هذا العنصر الجديد سريعاً ، و اتجه نحو التنور أو الفرن الذى يخبز فيه و أحرق كتاب غسان ...

ولكن مفاجأة أخرى بعد أربعين يوماً من المقاطعة أبطأ فيها الوحى ، ولم ينزل شىء بشأن الثلاثة المخلفين ، إذ جاء رسول من عند رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – وقال لكعب إن رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- يأمرك أن تعتزل امرأتك !

فقال له كعب : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا ..بل اعتزلها فلا تقربنها ، وأرسل إلى صاحبيه بمثل ذلك ، فأمر كعب امرأته أن تلحق بأهلها حتى يقضى اللّه فى هذا الأمر!

المخلفون الثلاثة -٦

يتواصل الحديث حول قصة المخلفين الثلاثة ، فيحكى عبد الله بن كعب بن مالك عن الحيرة و القلق و الاضطراب التى عاشها المخلفون حتى جاء رسول من عند الله – صلى الله عليه وسلم – يخبر كعبا أن يعتزل زوجته ، ثم " جاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

فقالت له :

يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟

قال: "لا ، ولكن لا يقربنك" .

فقالت : إنه و الله ما به من حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ ما كان أمره؛ ما كان إلى يومه هذا ، فقال لى بعض أهله لو استأذنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟

فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما يدرينى ماذا يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا استأذنت فيها ، و أنا رجل شاب ؟

فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، ثم صليت الفجر خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع ، يقول بأعلى صوته :

"يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء فرج .."

لم تكن مقاطعة النبى – صلى الله عليه وسلم – للمخلفين الثلاثة أمراً هيناً وسهلاً بل كانت محنة للمخلفين، فلم يكن هناك من يكلمهم من المسلمين أو يتعامل معهم، وبعد أربعين يوماً جاء من يطلب منهم اعتزال زوجاتهم، وصار الثلاثة يعيشون حالة صعبة يشعرون فيها بالكرب و الضيق ..وتلك حالة المؤمن الذى يشعر أنه

أخطأ ، و تنكب الطاعة وخالف الالتزام ، فهو يريد العودة إلى الوضع الطبيعى ، الذى يحسّ فيه بالتلقائية والعفوية ، دون أن يوخزه ضميره ، أو يؤرقه الندم ولكن يوجد دون هذه العودة آلام نفسية ومتاعب روحية ، رأينا العديد من عناصرها فيما قاله كعب بن مالك عنها منذ غادر الرسول – صلى الله عليه وسلم – المدينة ، متجها إلى تبوك وقد وصلت هذه الآلام تلك المتاعب إلى درجة اعتزال الزوجات ، وهو أمر صعب وشاق، وخاصة بالنسبة لمتقدمى السنّ الذين يحتاجون إلى زوجاتهم لخدمتهن .

لقد جاءت زوجة هلال بن أمية إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وشكت إليه أن زوجها " شيخ ضائع " ليس له خادم ، وتطلب أن تخدمه . فأذن لها ، وحذرّها ألاّ يقربنها فأعلمته أن الرجل من شدة الكرب الذى يعيشه لا يتحرك ، وما زال يبكى منذ بداية المقاطعة حتى يومه هذا .

وقد قال بعضهم لكعب أن يستأذن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى امرأته فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ ولكن كعباً رفض أن يستأذن أوخشى أن يفعل لأنه لا يدرى ماذا يقول له الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو شاب لما يزل ..

إن المخلفين الثلاثة عاشوا قلقا عظيما وهمّا كبيراً ، وكان كعب بن مالك بوصفه أصغرهم سنا هو الذى عبّر عن معاناتهم و ألمهم . لقد ظلت المقاطعة خمسين ليلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، بعد أن ضاقت عليهم أنفسهم ...ولكن كعباً سمع صوتاً صارخاً فوق جبل سلع بالمدينة يقول بأعلى صوته :

" يا كعب بن مالك أبشر "

إذاً هى البشارة ، وبداية الفرج ، وبداية انحلال العقدة القصصية كما يقول نقاد الأدب ، لقد عرف كعب أن الفرج قد جاء ؛ فخرّ ساجداً شكر الله على نعمة التوبة و القبول التى أعلنها الرسول – صلى الله عليه وسلم – للناس حين صلى صلاة الفجر ، وراح الناس يبشرون المخلفين بالتوبة ، وأخذ كعب من فرحته ينزع ثوبيه فلبسهما وانطلق متجها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان الناس

يتلقونه بالتهنئة على التوبة ، ويقولون له : لنهنئك توبة الله عليك ، حتى دخل المسجد ، فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس و حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله – رضى الله عنه – يهرول حتى صافحه و هنأه . ولأن طلحه كان الوحيد بين المهاجرين ، الذى قام وصافح وهنأ كعباً ، فهو لم ينسها لطلحة ..وهنا نرى مدى تغلغل أمر المخلفين و مقاطعتهم وقبول توبتهم فى أعماق المسلمين وتأثرهم بهذا الأمر ، لأنه يرتبط بقضية الإيمان و الطاعة و الالتزام .

التقى كعب بالرسول – صلى الله عليه وسلم – فى المسجد ، و تغير المشهد وتلونت ملامحه ، فالفارق كبير بين مشهد المقاطعة فى المسجد و مشهد التوبة . كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى المقاطعة يعرض عن كعب ولا ينظر إليه إلا حين يصلى ، أما هنا ، بعد التوبة ، فقد كان وجهه – صلى الله عليه وسلم – يبرق ويلمع بالسرور ، وهو يقول له :

" **أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك** "

فقال كعب : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

قال : " **لا ، بل من عند اللهّ عزّوجلّ** " .

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا سرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلس بين يديه ، قال : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله .

فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم: "**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**" .

المخلفون الثلاثة -٧

يروى كعب بن مالك – رضى الله عنه - أنه قرر التصدّق بماله لله ورسوله تعبيراً عن فرحه و ابتهاجه بقبول توبته عند الله ، ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم قال له :

-" أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " .

فقال كعب :

"إنى أمسك سهمى الذى بخيبر، وقلت : يا رسول الله ، إن الله تعالى إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن مما أبلانى الله تعالى:-

"والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى " .

....

هذه هى خاتمة القصة المهمة و المؤثرة للصحابة الثلاثة الذين تخلفوّا عن غزوة تبوك وكان أبطالها كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ..

وقد جاءت هذه الخاتمة منسجمة مع روح الإيمان ومنهج الطاعة الذى يعيشه المسلمون امتثالاً لله و استسلاماً لأوامره و نواهيه . هى خاتمة سعيدة جاءت بعد محنة عميقة ومؤلمة لأبطالها الثلاثة ، تمثلت فى مقاطعة النبى – صلى الله عليه وسلم – لهم وتبعه المسلمون فى المقاطعة التى ظلت خمسين يوماً وليلة ..لم يكلمهم أحد، ولم يتعامل معهم أحد ، بل إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم ينظر إلى كعب، أو يتواجه معه بالنظر، وهذا من أقسى العقاب النفسى الذى عاناه كعب بوجه خاص ، لأن الصحابيين الجليليين: مرارة بن الربيع و هلال بن أمية جلسا فى بيتهما يبكيان، ولم يخرجا إلى الناس .

لقد جاءت البشارة للمخلفين الثلاثة بعد المعاناة ، وبعد الاحساس الفادح بالتقصير عن أداء الواجب وهو الخروج إلى الجهاد فى تبوك ..إن الجهاد أمر ينبغى ألا يتردد فيه

مسلم مهما كانت الصعاب والعقاب، لأنه تعبيرٌ عن الاستجابة لأوامر الله، وطاعةٌ لرسوله، واستسلامٌ لمنهج يحفظ دار الإسلام ويصدّ عنها مطامع الأشرار والأعداء ..أما وقد أدرك المخلفون الثلاثة فداحة ما صنعوا ، فإن الحق سبحانه وتعالى تاب عليهم، وبشّر الرسول -صلى الله عليه وسلم- كعباً بالبراءة والتوبة وقال له ووجهه يبرق بالسرور: " **أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك** ."

وعرف كعب أن التوبة من الله ، وكان تعبيره عن فرحته إطلاق ماله صدقة لله ورسوله ، ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يخبر كعبا أن يمسك بعض ماله فلا يتصدق به كله ، فهذا خير له ، وهو درس نبوى عظيم ليكون المسلم قوياً وغير محتاج ولا يمدّ يده للآخرين وليستمر فى أداء دوره خدمة للدين وخدمة للمسلمين ..

ويعبر كعب بن مالك – رضى الله عنه – عن درس مهّم للغاية فى هذه القصة المهمة والمؤثرة ،وهو التمسّك بالصدق مهما كانت الظروف، فالصدق هو الذى أنجاه، والصدق كان بلاء من الله ، وهو من البلاء الذى أدى بصاحبه إلى قبول التوبة .

يقول كعب : "والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى" .

ولعل من تجليات هذا البلاء الحسن أن سجل القرآن الكريم هذه القصة ، وخصص واحدة من أطول سوره لتحمل اسم " التوبة " ، وتأتى آيات عديدة لتسرد تفاصيل القصة وتحكى أحوال المخلفين حتى تاب الله عليهم .

يقول تعالى : –

" لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ " (سورة التوبة الآيات ١١٧-١١٨)

بيد أن القصة كما وردت فى القرآن الكريم لا تتوقف عند هؤلاء الثلاثة الذين تاب الله عليهم ، ولكنها تفصل الحديث حول المنافقين الذين تخلفوا ومردوا على النفاق والكذب ، سواء اعتذروا قبل الخروج إلى الغزو أو رضوا أن يكونوا مع الخوالف و يعتذرون بعد رجوع المسلمين من الغزو ، و يحلفون بالإيمان المغلظة ليرضى عنهم المسلمون . وتعرض السورة الكريمة لأنواع من المخلفين و المنافقين، ولكنها فى النهاية تعلم المسلمين درساً مهما فى طاعة الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم :

" **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نيلاً ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين**" .

"وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ " (سورة التوبة الآيات من ١٢٠-١٢١)

إن الجهاد منهج لردّ العدوان على المسلمين ، ولا يجوز التخلف عنه مهما كانت الظروف ، وكل ما يبذله المسلم من إنفاق أو جهد فهو مقدّر بقيمته عند الله سبحانه وكل ما يصيب المسلم من ظمأ أو تعب أو جوع فهو عمل صالح يجازى عند الله، مثلما يحقق انتصاراً على الأعداء ، و ينال منهم ، فله فى كل الأحوال الجزاء الحسن " **ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** " .